العمارة المعاصرة من النزعة السلفية إلى الحداثة المنسجمة

د.آزاد أحمد علي
أكاديمي وباحث

يشكل التراث العمراني والمعماري لمدننا أحد أهم مواضيع السجال الذي يدور في اطار اشكالية العلاقة بين التراث والمعاصرة، وبين الهوية المحلية والحداثة المعولمة. و يتطلب البحث في جماليات العمارة وشخصيتها الخاصة أيضا عوامل وأسباب أخرى. فالتطرق الى جماليات العمارة والبيئة الاصطناعية وعلاقتهما بالمجتمع تبدو ضرورية اليوم امام هذا الكم الهائل من الانتاج المعماري والتوسع العمراني الاصطناعي السريع، بشقيه الحضري والريفي. ولاغناء الموضوع، وتسليط الضوء على الكثير من مسائله واشكالاته ذات الطابع الثقافي. المعرفي الجمالي وبالتالي الاجتماعي، لابد من التذكير من جديد ببعض مفاهيمه و اشكاليات دراسته.

ان تكررت بعض جوانب السجال فهي ضرورية.

الوعي المديني والثقافة المعمارية

لأن الثقافة العربية تفتقر الى جانب تخصصي هام وهو ما يمكن تسميته بالمعرفة المعمارية والعمرانية. فالوعي العمراني المديني والثقافة المعمارية فقيرة ومتوارثة في مجتمعاتنا. وهذا يعود الى عاملين رئسين، الأول هو إنشغال أهل المهنة (المهندسون المعماريون والإنشائيون) بعمل البناء.

أما العامل الثاني فهو مرتبط بمعالجة موضوع العمارة وجمالياتها من قبل بعض المهتمين من غير المختصين وذلك لملء عدد من الصفحات "الثقافية والفنية" لبعض الصحف والمجلات. وغالباً ما يكون هذا التناول غير التخصصي شكليا يفتقر إلى سعة الاطلاع ولا يرتكز إلى أساس علمي، وفي أحسن الأحوال يكون التناول شاعرياً وعاطفياً. وقبل كل ذلك نعاني جميعا من قلة المعلومات التاريخية وضحالة المعرفة التاريخية بالتراث العمراني وعلاقته الجدلية مع المجتمع، فضلا عن قلة الاطلاع على الفكر المعماري العالمي بتنوعه وتشعب مدارسه.

وفي المحصلة تم تناول مواضيع التراث والمعاصرة والحداثة في مجال العمارة والعمران تناولا لايرتكز على العلم والمعرفة بقدر ما يستمد أدواته من العاطفة والايديولوجيا، وتم دفع الموضوع بإتجاه حصره ضمن مسألة الهوية الثقافية وحمايتها..

وبناء على ما سبق يبدو لنا أن اثارة هذا الموضوع الذي يمس الجميع، ويعنيهم حياتيا وثقافيا، هي في الوقت نفسه فرصة للتذكير بحقل معرفي في غاية الأهمية، حقل ملاصق لحياتنا المعاشية ومؤطر له فيزيائيا. ومؤهل للقيام بصقل حسنا الجمالي والتأثير فيه. كما أن موضوع البيئة الإصطناعية بخطوطها الأساسية يستحق المزيد من الراي والسجال وبالتالي النقد، لأن هذه البيئة العمرانية التي ينتجها الانسان تقوم بإحتضانه والتأثير فيه بشكل مستمر. وهذه البيئة تتسع لتطغى على البيئة الطبيعية.

التراث والعمارة الحديثة

أول ما نعانيه في حقل المعرفة الجمالية بالعمارة والمشيدات المدنية الأخرى هو الالتباس الحاصل بين ماهو تراث فني من مبانٍ تاريخية شيدت بطرائق فنية بأيدي حرفيين مهرة على أسس عملية وبطرائق الإنشاء الحرفي. التقليدي، وبين العمارة الحديثة كمنتج صنعي، شيدت أجزاؤه ومفرداته على أساس علمي. فيزيائي. ان تطور علوم البناء دفعت بالعمارة إلى التحول التدريجي والتفاعل والتلاقح مع علوم الإنشاء والتشييد المستنتجة من خلاصات علوم الميكانيكا ومقاومة المواد وخواصها.

ان اشكالية العلاقة القيمية بين التراث المعماري والعمارة المعاصرة مازالت كبيرة ولم تفكك وتقيم هذه العلاقة بشكل موضوعي بحت، ومازال الموضوع بحاجة إلى حسن ادارة ومعالجة موضوعية تاريخية.

فالعمارة بوصفها منتج بصري وفراغي يؤثر على مجموع المشاهدين والمتلقين بقوة، وتحرض أشكاله على توليد الكثير من ردود الفعل الناتجة من تصادم القيم والمعايير الجمالية. لذلك برزت تيارات تدعو الى الحداثة وتلقي النموذج الصنعي الأوروبي للعمارة في مواجهة تيار آخر يعاكسه عن طريق التمسك بالتراث المعماري المحلي والتشبث بحرفيته، لدرجة أن اعتبرت العمارة الحديثة غزوا واستمرارا لتيارات فكرية ومدارس حداثوية غازية وفي حالات أخرى متأمرة!

وان كان الترابط والعلاقة بين العمارة والمدارس الفكرية . الفنية التي ظهرت في الغرب الرأسمالي ليست مباشرة، ولم تكنِ بالصورة التي روجت لها نظريا. اذ كانت حالات التفاعل والتطبيق العملي على نطاق ضيق نسبياً، وليس حالة ونموذج لوكوربوزية والحركة التكعيبية إلا صدفة تاريخية، ساهمت في نجاحها الواقعي جملة من العوامل والمحفزات العملية. لقد كانت استثناء وليست قاعدة. وبالتالي ليس كل بناء حديث هو نتاج تنظير ومن ثمار الحركات الفكرية والسياسية الغربية.

فمن الخطأ اعتبار التطورات التي طرأت على العمارة العالمية والتي تجسدت أكثر في الأشكال والمدارس الغربية، انتاجاً فظا للرسمالية واللاهوية كما يدعي بعض المعماريين، فقد نبتعد بالتمسك بهذا الرأي عن الموضوعية والرؤية العلمية ونتخندق في موقع محافظ بل سلفي و متحجر. لأن ما حدث من تطور في الخط العام للعمارة الغربية هو خلاصة التطور العلمي العالمي، وحصيلة التراكم في الخبرات من علوم: البناء، مقاومة المواد، الميكانيكا، نظريات المرونة، الخرسانة، تكنولوجية التعدين، وكذلك تطور صناعة البلور والسيراميك. وهي بالتالي إ ستجابة لبعض نظريات العمارة المتفاعلة مع خصائص وامكانات هذه المواد الحديثة.

فنمط البناء الشاقولي ارتبط عضوياً بتطور وتوسع المدن الصناعية، والتمركز الشديد للحياة المدنية، بالترابط مع تشكل الطبقة العاملة والعائلات الصغيرة العدد. كما كان للدور الصحي وزيادة السكان في المدن، ولضيق مساحة أراضي البناء تأثيرا كبير على بروز واستمرار العمارة البرجية.

من جهة أخرى نجد أن حركة البناء والعمران تتصاعد في أغلب البلدان النامية عمرانيا حسب معايير وتصاميم حديثة ومقتبسة تماما.

فالاتجاه الحداثوي يخطأ عندما يصر على نقل حصيلة تطور عدة قرون من الغرب مباشرةً الى مدننا وتقليد العمارة الغربية دون الأخذ بعين الاعتبار الاختلاف في المناخ ونوعية مواد البناء وسوية التطور الاجتماعي-الاقتصادي في مجتمعاتنا، إضافة الى الوعي المديني والثقافي الأولي. فهذا الاتجاه الحداثوي المتحمس للأشكال الغربية والذي يعتمد استنساخ العمارة الغربية ونقلها يمكن تصنيفه موضوعيا ضمن خانة التقليد والتبعية وربما الجهل. وعلى أية حال فثمة اختلافات جوهرية بين المهتمين والمنظرين المعماريين في فهم المسألة الجمالية للعمارة المعاصرة ودرجة تصادمها القيمي مع التراث المعماري المحلي، أو استمداد مواصفاتها وجمالياتها من المعايير العالمية السائدة.

العمارة وليدة المكان

وعلى الأرجح سينال الرأي المتمسك بالابداع المحلي الاحترام والتأييد، فلا يمكن للحداثة المنسجمة إلا أن تكون جميلة، ولا يمكن لها إلا أن تكون منتمية في الوقت نفسه، لأنها ثمرة لتطور المجتمعات البشرية ولديالكتيك تجدد بعدها الحضاري لمواكبة متطلبات العصر والانتماء إلى الزمن الحقيقي، وعدم الانصياع للحنين الماضوي. فالحداثة العمرانية والمعمارية لابد لها أن تكون وليدة المكان وابنة الثقافة المحلية وبالتالي ستكون متداخلة ومتفاعلة مع التراث المعماري المحلي ومنبثقة عن روحه.

وعلى المنحى الآخر يبدو أن النقل المباشر والسريع لنماذج الأبنية الحديثة الموشورية البلورية وزرعها داخل نسيج مدن الشرق وعمارتها الهادئة الرصينة، تخلق انطباعات وأحاسيس تكون أقرب الى النفور والتصادم والدهشة واللاإنسجام، منها الى القبول والتفاعل والارتياح. إن نقل حصيلة تطور عدة قرون وتكثيفه بعدة سنوات وغرسها في جسد مدننا التي عانت من قطيعة تاريخية وتجمد في أوصالها الحضرية-العمرانية، لها انعكاسات نفسية واجتماعية وخدمية غير ملائمة.

ولكن لابد من التهيؤ والعمل لتطوير عمراننا على اسس ابداعية. وينبغي لذلك أولا فصل موضوع المدن القديمة وحماية تراثها المعماري عن عملية الإنتاج المعماري المعاصر وبناء مدن جديدة ذات سمات وخصائص ابداعية، وبهوية منتمية إلى البيئتين الطبيعية والاجتماعية، هوية لاتستنسخ تجارب الآخرين ولاتعتمد على التراث بشكل كبير. فالصراع والاحتكاك بين ماهو قديم وتراثي وما هو جديد، جاري منذ أمد بعيد وقد حسمت بصورة دراماتيكية لصالح الحديث خاصة في مجالات الأزياء والآليات وغيرها من مناحي الحياة المعاصرة...

فلماذا تم القبول بالسيارة وهي بصيغة ما "عمارة متحركة"، ولماذا حسمت معركة الحداثة لصالح التحديث والتغريب والعصرنة في مجال الأزياء. ألم تدر يوماً ما معركة طاحنة في الشرق بسبب غزو النمط الغربي للثياب لمعاقل عماماتنا وطرابيشنا الشرقية، والتي تعتبر بصيغة ما "عمارة صغيرة" ملتصقة بجسم الإنسان، فثمة روابط جنينية وأنتروبولوجية بين العمارة والرداء.

ويستحسن أن نحيل موضوع العلاقة بين التراث والمعاصرة إلى العلاقة بين التقليد والابداع والابتكار، فالابداع سمة كل مرحلة والدعوة للتمسك بالهوية ينبغي ان تكون دعوة ذات محتوى ابداعي. بما معناه ان ننتج عمارة معاصرة منسجمة مع واقعنا، وتساهم في اغناء تجارب العالم.

فليس السلف الصالح وحده كان قادرا على إبداع عمارة جملية واصيلة ومنتمية إلى المكان. ولايجوز الحكم بالجمود والتبعية على المهندس المعاصر، فباب الابداع في العمارة والعمران مازال مشرعا، ولابد من الاجتهاد والا حكمنا على واقعنا الفني المعماري . العمراني بالموت، واسلمنا بأن التاريخ قد توقف ابداعيا على الأقل، عند بوابة هذه القلعة أو ذاك القصر التاريخي.

الفن في العالم

ألمانيا

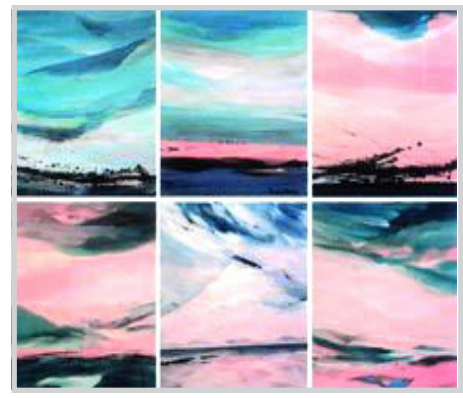

" نقش " في متحف الفن الإسلامي

يعرض في جناح الفن الإسلامي العائد لمتحف "بيرجامون" في برلين. معرض لفنانين معاصرين ايرانيين بعنوان " نقش " . حيث عرضت لهم أعمال فنية كانت مواضيع تتمثل تفسير وتجزئة الصور التقليدية والحديثة لشخصيات مختلفة ، ونماذج الأدوار وأشكال التصرف في إيران. نُتجت الأعمال المعروضة في إيران وفي خارجها .و يفترض معرض "نقش" مستويات مختلفة من التعبير-المعرفة الفنية والحياة، بتسليطه الضوء على الأدوار والشخصيات المتعددة الأوجه. وتبين الأعمال كيف جرت الحياة بشخصيات متعددة، وتحت الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي سادت الحياة اليومية. نماذج الأدوار في إيران ليست ساكنة، وينتقدها الشعب ويدافع عنها ويناقشها. يسلط "نقش" الضوء على مناظرة فائقة التعقيد والسخونة، وعلى الفرصة المتاحة لرد الفعل الناقد على واقع الحال، وما هو التغيير الأساسي . وحول الأعمال الفنية في المعرض، تعرض "بيتا فيازي" في عملها التركيبي أطفالاً بدون نوع اجتماعي مستلقون على أسرة من المسامير. وهي تكتب أن العمل هو تعبير عن "قلقها" حول ما أصبح العالم عليه وعن الأطفال الذين ولدوا والذين لم يولدوا بعد، الذين ما زال عليهم أن يتمرسوا ويتطوروا في ظل هذه الظروف العصيبة مهما كان نوعهم الاجتماعي.

وذكرت الفنانة "نيدا رازافيبور" أن عملها الفيديو هو وجهة نظر ساخرة ومتهكمة حول الحب والإغراء، وتعبث في المحظورات الاجتماعية.

الاردن

آفاق جديدة .. معرض للفنانة نوال العبد الله

اقامت الفنانة الاردنية نوال العبدالله معرضها الشخصي الثامن في جاليري رؤى . عمد ت الفنانة في تجربتها الجديدة التي حملت عنوان " آفاق جديده "، الى بناء تكوينات مفتوحه هدفها تناول المحيط باسلوبية مغايرة ، وظفت خلالها اللون لاداء مهمة تجاه المحيط من هنا اقترحت ترتيبات كثيرة عبر عشرات اللوحات التي تضمنت الجبل و الوادي و البحر و الشطآن و الافاق و الغابات والصحراء وكل مشهد يسمح للعين التجوال فيه.

وتسعى الفنانة الى تقديم مادة مثيرة للتامل وقابلة على تحقيق استجابة جمالية ،من خلال مستويات لونية متعددة في اللوحة الواحدة وادراج مراتب لونية متنوعة وهي تفكك المشهد وتنزع منه التفاصيل لتقترحه نقيا وبشكل متقن فيما هو، وانيقا مثيرا وساحرا وغنائيا في آن واحد .

الفنانة نوال العبدالله مواليد عمان العام ١٩٥١ وهي خريجة اكاديمية الفنون الجميلة في فلورنسا في ايطاليا مابين ١٩٧٤ و ١٩٧٩ تعمل كفنانه متفرغة ومحترفة أقامت ثمانية معارض شخصية كما شاركت بمعارض جماعية في عدة دول عربية واجنبية.

الحقبة القديمة

ضيفت صالة الفن والمعارض في مدينة بون من ٢٢ آب ولغاية ٧ كانون الأول معرضا للحقب القديمة من تاريخ أوروبا. ويشمل ذلك الفترة من القرن الثاني إلى القرن السادس الميلادي، حيث يتم تناول أبرز ميزاتها من خلال ما يزيد على ألف قطعة أثرية كالحلي والقطع النقدية والأسلحة وغير ذلك من الأشياء النفيسة التي تم استقدامها من ٧٠ بلداً أوروبياً. ومن خلال ذلك يستطيع الزائر الإطلاع على التغيرات التي طرأت على خارطة القارة آنذاك من الناحية الديمغرافية في ضوء التنقلات التي شهدتها شعوبها آنذاك.

تبرز أهمية هذا المعرض من كونه يجيب عن أسئلة كثيرة مثل، ماذا أفرز الاندماج اللاإرادي الذي سببته الحروب، بين شعوب أوروبا؟ ومن كان اللاعبون الأقوياء في هذا الاندماج؟ وما أهم تبعاته لاحقاً على الإمبراطورية الرومانية؟ وبفضل ذلك يخرج الزائر من المعرض وقد تكونت لديه فكرة أدق عن تاريخ أوروبا القديم.

فلسطين

على أبواب الجنة

تظاهرة إبداعية لستة وعشرين فناناً من فلسطين وبلدان أخرى اقيمت في البلدة القديمة في القدس تحت عنوان "تجوال في البلدة". اشتملت الأعمال الفنية على تشكيلة منوعة من الوسائط، ومنها التصوير الفوتوغرافي، والفيديو، واللوحات الزيتية، وأعمال الأداء الحي، وفن النحت، وقد تم تثبيتها في أنحاء الأحياء الرئيسية للبلدة القديمة في الشوارع والطرقات، وعلى أسوار البلدة القديمة، وفي مراكز شبابية ومجتمعية، وفي الساحات والملاعب، وعلى أسطح البنايات .

واقيمت ورشتا عمل للشباب (في فن النحت والوسائط الحديثة)، وبرنامج فعاليات، على هامش الفعالية الفنية يتضمن جولات ارشادية في أرجاء البلدة القديمة في القدس، وعروض فيديو وأفلام، وعروض أدائية حية.